

تفسير السعدي

@ 109 @ لغيرهم فلما نصرهم اﷻ تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا اﷻ آمنين مطمئنين
لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله فلو لم يكن لم يحصل
ذلك فلهذا قال تعالى : ! 2 2 ! أي : لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار
وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة
اﷻ تعالى وإظهار دينه ! 2 2 ! حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم
ومكنهم من الأرض بأسباب يعلمونها وأسباب لا يعلمونها ثم قال تعالى ! 2 2 ! أي : بالصدق
الذي لا ريب فيها المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور ! 2 2 ! فهذه شهادة من
اﷻ لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه اﷻ عليه من أخبار الأمم السالفة
والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر اﷻ إياه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في
قومه من عنده شيء من هذه الأمور فدل أنه رسول اﷻ حقا ونبيه صدقا الذي بعثه بالحق ودين
الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون | وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر
به أولو الألباب فمنها : أن اجتماع أهل الكلمة والحق والعقد وبحثهم في الطريق الذي
تستقيم به أمورهم وفهمه ثم العمل به أكبر سبب لإرتقائهم وحصول مقصودهم كما وقع لهؤلاء
الملاحين راجعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرقهم وتحصل له الطاعة
منهم ومنها : أن الحق كلما عورض وأوردت عليه شبه ازداد وضوحا وتميز وحصل به اليقين
التام كما جرى لهؤلاء لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجابوا بأجوبة حصل بها
الإقناع وزوال الشبه والريب | ومنها : أن العلم والرأي : مع القوة المنفذة بهما كمال
الولايات وبفقدتهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها | ومنها : أن الاتكال على النفس سبب
الفشل والخذلان والاستعانة باﷻ والصبر والالتجاء إليه سبب النصر فالأول كما في قولهم
لنبيهم ! 2 2 ! فكأنه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا والثاني في قوله : !
2 2 ! | ومنها : أن من حكمة اﷻ تعالى تمييز الخبيث من الطيب والصادق من الكاذب
والصابر من الجبان وأنه لم يكن ليزر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز |
ومنها : أن من رحمته وسننه الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين
وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها ثم قال تعالى : (253) ! 2 !
يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم
إلى الناس ودعائهم الخلق إلى اﷻ ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة
والأفعال السديدة والنفع العام فمنهم من كلمه اﷻ كموسى بن عمران خصه بالكلام ومنهم من

رفعه على سائرهم درجات كنبينا صلى الله عليه وسلم الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين ! 2 2 ! الدالات على نبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ! 2 2 ! أي : بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به وقيل أيده بجبريل عليه السلام يلزمه في أحواله ! 2 2 ! الموجبة للاجتماع على الإيمان ! 2 2 ! فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة فإذا وجدت اضمحل كل سبب وزال كل موجب فلهذا قال ! 2 2 ! إرادته غالبية ومشيئته نافذة وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من الاستواء والنزول والأقوال والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية | فائدة : كما يجب على المكلف معرفته بربه فيجب عليه معرفته برسوله ما يجب لهم يمتنع عليهم ويجوز في حقهم ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة منها : أنهم رجال لا نساء من أهل